قوة الإيمان المنيعة

سـؤال: مـا هـي أكبـر العوائق التي قـد يواجهها مـن يرغبون في إيصال إلهامات أرواحهم وتبليغِ جماليّات القِيَمِ التي يؤمنون بها إلى قلوبِ الآخرين؟

الجـواب: إن أكبرَ عناصرِ الامتحانِ بالنسـبةِ لِلْبَشَـرِ هي الرغبات والأهـواء الدنيوية، وقـد ارتُكِبَ كمٌّ هائلٌ من المظالم ووقعَت حِزْمةٌ من الأزمات في المجتمعات التي تُطَوِّقُ هذه العناصرُ مشاعرَ أفرادِها وأفكارهـم، وتُخيِّـمُ عليها وتطغى، وتعرَّض العديـدُ من رجال الحقِّ والحقيقـة وفـي مقدِّمتهـم الأنبياء عليهم السلام لاعتـداءاتٍ وهجماتٍ قاسـيةٍ جاحدةٍ، ولشـتّى أنواع الإهانات والافتراءات، بل وحتى لِمحاولات القتلِ وللمذابحِ أيضًا، كما أنَّ أوَّلَ حادثةٍ تكوي القلوب والأكباد قد وقعـت في بيت سـيدنا آدم عليه السلام الـذي تنزَّلَ عليه الوحـي زخًّا زخًّا، ومـع أن قابيل نشـأ فـي مناخٍ كهذا إلا أنه قتلَ أخـاه هابيل كي يَصِلَ إلـى شـهواته الدنيويّة الفانيـة، قال تعالـى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ**

قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٢٧-٣٠)، وهكذا بدأَتْ أَوَّلُ جريمةٍ بإغواء الشيطان للإنسان، وتتابعَ على إثرها الكثيرُ من حوادثِ الإغواء والانخداع، ولـمَّا تنتهِ بَعْدُ.

وكما ورد في أحَدِ الكتبِ المقدَّسَةِ؛ فإن سيدنا داود عليه السلام الذي أرسَلَهُ الله إلى بني إسرائيل ليُنقِذَهم من الاضطهاد والذُّلِّ وليقودَهم إلى العِزَّةِ والرِّفْعَةِ قد تعرَّضَ على أَلْسِنَةِ قومه لافتراءاتٍ لا يُتَّهَمُ بها ولو حتى الأفراد العاديّون مثل تهمة الزنا والقتل، -حاشا وكلّا أن يقعَ منه ذلك عليه السلام- واضطره قومُه إلى الحلفِ بالله على التابوت، محاولين التضييقَ عليه وإلجاءه إلى ما لا يرغبُ في فِعْله.

أما سيِّدُنا رسولُ الله مفخرة الإنسانية ﷺ فقد تعرَّض للعديد من الاتهامات على أيدي أعدائه؛ فَرَموهُ بأنه -حاشا وكلَّا ألف مَرّة ومَرّة- ساحرٌ مرّةً، قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ (سورة يُونُس: ١٠/٢)، ومرّة أخرى بأنه شاعر، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٥)، ومرّة أخرى بأنه كاهن، قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الْحَاقَّةِ: ٦٩/٤٢)، وبذلوا جهدهم كي يمنعوا الحقائق التي سيُبَلِّغها عن ربه تعالى من أن تدخلَ في القلوبِ فتُنيرَها.

"أَذْهَبْتُمْ طيباتكم في حياتكم الدنيا!"

وقد تقعُ حوادث كهذه في يومنا هذا أيضًا، ومن المُؤكَّدِ أنّها لن تتوقَّفَ لاحِقًا، والمهمّ هو ألا نفعلَ مثلما فعلَ بعضُ الشعراء حينما خلَّدوها كملاحمَ للأحزانِ والهمومِ، ونقلوها إلى الأجيال اللاحقةِ كرسائل شكوى. أجل، إن المهمّ ههنا هو أن يتقبَّلَ الإنسانُ برضًا تامٍّ كلَّ هذه الملِمَّات التي تحلُّ به، وألَّا يتشكّى منها إلى الناس، وأن يتحيَّنَ الفُرَصَ وأوقاتَ العزلةِ فيلجَأَ إلى الله تعالى ويبثّ إليه ﷻ ما يعتمِلُ في صدره، بيدَ أنه ينبغي له وهو يفعلُ ذلك ألا يُسمِعَ أحدًا صَرْخَتَهُ وصيحتَهُ؛ فاللهُ ﷻ ولا أحدَ سواه هو المالكُ الحقيقي للزمانِ والمكان، والحكمُ حكمُهُ، ومِنْ ثَمَّ فليسَ مِنْ شأنِنا التدخُّلُ في النتائِجِ، وعلينا أن نحترمَ أحكامه تعالى بشأننا ونقدرها حقَّ قدرِها، ونمضي قدمًا في طريقِنا متمثِّلين قولَ الشاعر التركي إبراهيم تَنُّوري:

ما أعذب البلاء إن كان من جلالِهْ!
وما أحلى الوفاء إن كان من جمالِهْ!
فكلاهما صفاءٌ للروح
فما أحلى لطفه! وما أعذب قهره!

فقد يأتي الجفاءُ من الجلالِ حينًا، والصفاءُ من الجمالِ حينًا آخر، ولا بدَّ من التسويةِ بينهما هما الاثنين؛ فلا يُفرَحُ بالصفاءِ، ولا يُستاءُ من الجفاءِ، ولنتَرَفَّعْ عن مثلِ قولِ: أَلِأَنني فعلتُ كذا وكذا أصابني ما أصابني؟ لماذا تحُلّ بي أنا دائمًا هذه الآلام والأزمات والشائعات والأحقاد والمظالم؟! وما أجملها في هذا الموضوع من كلماتٍ أبيات الشيخ "محمد لطفي أفندي" التي تَبُزُّ بِحُسنِها بريقَ اللؤلؤِ والمرجان:

يقول عاشق الحقّ عن مُرهَفِ الحِسِّ:

لا تـمتعض ممّن يؤذي

فمن امتعض من الأذى

قلّتْ درجتُه عن المؤذي

أجل، إن كنتم تتشوَّفون إلى الكمال في الآخرة فَحَذَارِ أن تطلبوه هنـا من الأشـياء الدنيويّة؛ فمـا طلبُ ذلك من الدنيـا إلا علامةٌ على النقصِ؛ وإن انتظارَ أمورٍ دنيويّة مثل تصفيق الناس وتقديرهم ليس إلا استثمارًا خاسِرًا وزائفًا بالنسبة للآخرة، وقد حذَّرَنا القرآن الكريم من هذا فقال ﷻ فيه: ﴿**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا**﴾ (سـورة الأَحْقَـافِ: ٤٦/٢٠)، ولـذا فحـريٌّ بنا أنْ نُرجِئ إلـى الدار الآخرة طلـبَ كلِّ ما سـيمُنُّ به الحقُّ تعالى علينا من أنـواع اللُّطْفِ والنعيم، وألا نستَنْفِدَ ههنا في دار الفناء هذه كلَّ الخيرات والهِبات التي وُعِدنا بالحصول عليها في الآخرة.

وثمـة قصـة مُعَبّرَة تُحكى فيما يتعلقُ بهذا الموضوع؛ إذ حُكيَ أنَّ زوجـةَ أحد عبـاد الله الصالحين اشـتكت إلى زوجِهـا صَلَفَ العيش وضيقـه، وطلبت إليه أن يدعـو الله كي يخلصهم من هذا الحال؛ فلم يكسـر الرجـل الصالـح بخاطر زوجه وراح يدعو الله؛ فاسـتجاب الله دعـاءه؛ فمـا برِحـا مكانهما إلا وقـد ظَهَرَتْ إلـى جوارهمـا لَبِنَةٌ من الذهـب؛ فقال الرجل الصالـح لزوجه: "ها هـو ذا! إنها إحدى لَبِنَاتِ قصرِنـا في الآخرة"، فقالت المـرأةُ المباركة نادمةً على أن طَلَبَتْ من زَوجِهـا ما طَلَبَـتْ: "رغمَ أنَّنا محتاجون حقًّا؛ لكنـه وكَيلَا تضيـعَ في هـذه الدنيا الفانية جائزةٌ واحدةٌ سـنحصلُ عليهـا بإذن الله في الآخرة

عالـمِ البقـاءِ، وكَيلا تنقصَ لبنةٌ مـن لَبِنَاتِ قصرِنا في الجنّة؛ أسـألُكَ أن تدعـوَ الله تعالـى ثانيـةً -كما دعوتَـهُ أوَّلًا- أن يَرُدَّ هـذه اللبنة إلى مكانهـا"؛ فدعا الرجل الصالح ربَّـهُ ثانيةً نزولًا منه على رغبةِ زوجته الصادقـةِ هـذهِ، فاختفَـتْ تلـك اللَّبِنَـةُ فجـأةً عـن الأنظـارِ، وعادت من حيثُ أَتَتْ.

أجل، إن القوَّةَ المنيعةَ لِمَنْ نَذَرُوا أنفسَهم للحقِّ، وتعلَّقَتْ قلوبُهم بغايةٍ سـاميةٍ واستهدفوا إعادة نجمِ مسـتقبلِ أمَّتهم إلى بَريقه ولَمَعَانه مـن جديـد؛ لَتَتَمَثَّلُ في أنْ يُباعِـدوا بينهم وبين الدنيـا، وأن يتحرّكوا بروحِ الاسـتغناءِ، ويقِفوا أنفسَهم على تحقيقِ سعادة الآخرين التامّة، وهـذا لا يمنـعُ مَنْ يعيشـون علـى التجـارة ويواصلـون حياتهم بما يكسـبون منها، ويدعمون خدمةَ الإيمان والقرآن مِنْ أن يطلبوا الدنيا كسـبًا شـريطةَ أن يهجروها قلبًا، غير أنه ينبغي لرجالِ الخدمة الذين يُمَثِّلون هذا العمل وقد نَذَرُوا أنفسَهم له أن يَثْبُتُوا في مواجهة الدنيا، وأن يتصرَّفُـوا باسـتغناءٍ دائمًا؛ لأن اسـتغناءَهم هو أعظـمُ أَرْصِدَتِهم، وكلّما اسـتغنوا أكثر كلّما أصغى الناس وَوَثِقوا بهم ووافقوا مطمئِنّين لِكلِّ مسألة يُشارُ إليهم بها، ومن ثَمَّ يُؤَدُّون الوظائف والمهام الواجبةَ عليهم دون تردُّدٍ ولا شَكٍّ، ولو مثقال ذرّةٍ.

وبينمـا يجبُ أن يتحقَّقَ هذا ويحدثَ؛ إلا أنّ المؤسـف هو كثرةُ عددِ من مال إلى الدنيا بدعوى "أنه لا بأس في الاستفادة منها قليلًا" فـي أول الأمر، ثـم غاصَ وانخرط فيها حتى الأعماق؛ فانهزم أمامها بالرغم من أنهم حين انطلقوا في هذا السبيل كانوا متّحدين ويحملون روحَ التضحية والفداء؛ فكانوا كما قال الشيخ "محمد لطفي أفندي":

كم من شخصيّاتٍ عظيمة

وسلاطين ذوي وجوهٍ نورانيّةٍ

وملوكٍ وأباطرةٍ كـ"كسرى أنو شيروان"

ولّـوا وانهـاروا واحدًا تلـوَ الآخر، وغرقوا في بحـر الدم والقيح والصديد الذي نُطلِق عليه اسمَ الدنيا، وإن استسلامَ رجالِ الحقِّ لمثل هذهِ الأفكار الشّـيطانيّة، وقولُهُم: "فلنكسـب نحـن أيضًا، ولتكن لنا منازلُنا وثرواتنا ولنعِشْ مثلهم..."؛ إنما يعني قضاءَهم على أرصِدتهم بأيديهم أنفسـهم لا بأيدي غيرهم، ومن ثم يقضي القَدَرُ بأن تُسْـلَبَ مـن أيديهـم النِّعَمُ التـي يملِكُونها، وأن تَنْزَلِقَ أقدامُهـم ويضلُّوا، فإن يحـدثْ خـلاف ما هو مرجوٌّ ومحمودٌ فإنّ الله ﷻ يذهبُ بِمَنْ تعفَّنوا وصاروا أجسادًا بلا روحٍ، ويأتي بدلًا منهم ﴿**بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٥٤).

السبيل إلى إرغام المتكبرين

إن حِمايـة قيمةِ وشَـرَفِ التضحية والفدائيّـة وصيانةَ ذلك في كلِّ الأحـوالِ أمرٌ لا بُـدَّ عنه، وقد كان مفخرةُ الإنسـانيّة المُضحّي الأول الذي يُمثِّلُ القمَّةَ في هذا الشـأن؛ حالُهُ في ذلك كحاله في غير ذلك من الأمور والمواضيـع؛ فقد ارتحلَ ﷺ إلى أُفُقِ روحه ودرعُهُ مرهونة عند يهودي من أجلِ إطعامِ أهله، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: "تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ"[٥٩].

ولم يكن سـيدنا أبو بكر رضي الله عنه مختلِفًا عن رسـول الله ﷺ أو متخلِّفًا عنه في هذا الأمر؛ فلما حضَرَتْهُ المنية أبلـغَ من حوله بأنه كانَ يُحاوِل

(٥٩) **صحيح البخاري**، الجهاد، ٨٩؛ **سنن الترمذي**، البيوع، ٧؛ **سنن ابن ماجه**، الرهون، ١.

طِيلـةَ حياتـه ألا يسـتهلك ما يزيدُ عن حاجته، وأنـه جمعَ ما زادَ عن حاجتـه ممّـا خُصِّـص له، فإذا هو مـاتَ فليَرجِـعْ به المسـلمون على بيـت المـال، فعَنْ أَنَـسٍ ﵁ قَالَ: "أَطَفْنَـا بِغُرْفَةِ أَبِي بَكْـرٍ الصِّدِّيقِ فِي مَرْضَته الَّتِي قُبِضَ فِيهَا، قَالَ: فَقُلْنَا: كَيْفَ أَصْبَحَ أَوْ كَيْفَ أَمْسَى خَلِيفَةُ رَسُـولِ الله ﷺ؟ قَالَ: فَاطَّلَـعَ عَلَيْنَا اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: أَلَسْـتُمْ تَرْضَوْنَ بِمَا أَصْنَـعُ؟ قُلْنَـا: بَلَى قَدْ رَضِينَا، قَالَ: وَكَانَتْ عَائِشَـةُ هِـيَ تُمَرِّضُهُ قَالَ: فَقَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أُوَفِّرَ لِلْمُسْلِمِينَ فَيْئَهُمْ مَعَ أَنِّي قَـدْ أَصَبْتُ مِـنَ اللَّحْـمِ وَاللَّبَـنِ، فَانْظُـرُوا إِذَا رَجَعْتُـمْ مِنِّـي فَانْظُرُوا مَا كَانَ عِنْدَنَا فَأَبْلِغُوهُ عُمَرَ، قَالَ: وَمَا كَانَ عِنْدَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مَا كَانَ إِلَّا خَادِمٌ وَلَقْحَةٌ وَمِحْلَبٌ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عُمَرُ يُحْمَلُ إِلَيْهِ قَالَ: يَرْحَمُ الله أَبَا بَكْرٍ، لَقَدْ أَتْعَبَ مَنْ بَعْدَهُ"[٦٠].

وقـد أدَّى سـيِّدُنا عمـرُ ﵁ عملَه خليفةً للمسـلمين بنفسِ الفهمِ والشـعورِ؛ فلم يتَّخِذْ له كرسـيًّا لِلعرش قطّ، بل جلسَ في المسـجد، وأدار شؤونَ الأمّة منه، ولم يتعذّر بمقولةِ "التكبّر على المتكبّر صدقة" مـن أجل أن يحيا حيـاةً فارهةً تموج بالأبهـة والخيلاء، بالعكس من ذلـك لقد اسـتطاع -مع تواضعه- أن يُخضِـعَ لـه دول العالم آنذاك، ولـمّا ذهبَ لاسـتلام مفاتيحِ المسـجدِ الأقصى خـرجَ حكّامُ القدس وقتها لِلقائه ﵁ وقد ارتدوا الملابس المزخرفة المزركشـةَ، بينما كان هـو متواضعًـا لأقصى درجـة كما تبين من ملابسـه المرقعـة وتعاقبه علـى الدابـة مع خادمه، ولقد اشـتهرَ أنّه لما لقيَهُ أُمـراءُ الأجنادِ قَبْلَ أن يَصِـلَ إلـى بيتِ المقـدسِ قالوا: يا أمير المؤمنيـن إنك تقدم على

(٦٠) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ٣/ ١٧٣.

أنـاس، وأنـت على هذه الحالة قميـصٌ مرقّعٌ، وعلى بعيـرٍ مرحّلٍ!! هـذا بـرذونٌ تركبه، -والبرذون ما بين الفـرس والبغل، وله تبخترٌ في المشـيِ- وهذا قميصٌ جديد تلبسُـه، فلما جـيءَ بالقميص وكان من الكتّان قال: ردّوا عليَّ قميصي واغسـلوه، فغسـلوا القميص المرقَّع، وجـيءَ بـه ولَبِسَـهُ، فلما قدَّمـوا إليه البـرذون رفضَه وأَمَرَ بـردِّ بعيرِه، وكان رحاله من الليف، فدخل إلى بيت المقدس والدورُ لخادِمِه في الركـوب، فكان يقودُ البعيرَ وخادمه راكـبٌ، فلما قدمَ على دهاقِنَتِهم وقساوِسَتهم وأهلِ دينهم الذين عرفوا نعتَهُ عندهم قالوا: هذا الوصف الـذي نجده عندنا في كتبنا، وسـلموا إليه مفاتيـح بيت المقدس(٦١)، وكما يتَّضِحُ تمامًا من هذه الحادثة فإن التواضع والتفاني هو السبيل إلى إرغام متكبّري العصر أيضًا، فمثل هذا الحال والتصرُّفِ يسـحقُ أمامَهُ كلَّ أنواع الكِبْرِ والخيلاءِ ويدفنُها في أسفل سافلين. أجل، لقد كان هذا هو أسلوب سيدنا عمر ﵁ وديدَنُه طيلةَ حياته، فلم يُفَكِّرْ في أيّ وقتٍ قطُّ أن يورِّثَ أبناءه ولا أحفاده شـيئًا، بل تركهم أمانة لفهم الصحابة الكرام ورعايتهم، وعلى هذه الحال انتقل إلى أفق روحه.

وقـد كان سـيدنا عثمـان ﵁ تاجـرًا يُعَـدُّ مـن أغنـى أغنيـاءِ مكة والمدينـة؛ وقـد "تـرك الدنيا قلبًـا لا كَسْـبًا"(٦٢)، حيث إنّـه لما دَعَت الحاجـةُ إلى تجهيزِ جيشِ العُسْـرَةِ الذي سـيتحرّكُ إلـى "تبوك" تبرّع ﵁ بثلاثمائـة بعيـرٍ بأحلاسـها وأقتابهـا دون أدنـى تبـرُّمٍ أو ضيـقٍ أو نـدمٍ علـى مـا فعل، تبرع بذلك لا لشـيء سـوى رضـا الله ﷻ(٦٣)،

(٦١) ذكره عطية سالم في شرح بلوغ المرام، ٨٦/٣.

(٦٢) بديع الزمان سعيد النورسي: **المثنوي النوري**، الحبة، ٢٣١.

(٦٣) **سنن الترمذي**، مناقب عثمان، ٢؛ الطبراني: **المعجم الكبير**، ٦٢٥/٥.

ولـو أنَّ مفخرةَ الإنسـانيّة ﷺ قال لـه: أَنفِقْ كلّ مالك؛ لَمَـا تَردد ألبتة ولأنفقه كلّه في سبيل الله على الفور.

وكانـت حيـاة سـيدنا علي رضي الله عنه تسـير على نفس المنـوال أيضًا، فكان حاكمًا لرقعة جغرافية ربما كانت مسـاحتها تفوق مساحة تركيا اليوم بعشرين ضعفًا، وبالرغم من أن حدود الدولة التي كانت تحت حكمـه شـهدت بعض المنازعـات السياسـية إلا أنها كانت شاسـعة واسـعة متراميـة الأطراف لدرجةٍ تسـتطيع معها أن تسـتوعبَ أعظم إمبراطوريّتيـن قبلَ الإسـلام؛ فـارس والروم، ومـع ذلـك كان يلبسُ ثيابَ الشّـتاءِ في فصلِ الصيف وثياب الصيفِ في فصلِ الشـتاء، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: كَانَ أَبُو لَيْلَى يَسْـمُرُ مَعَ عَلِيٍّ، فَكَانَ يَلْبَسُ ثِيَابَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، وَثِيَابَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ(٦٤).

هذا هو الإسلام الحقيقي، فأين نحن منه؟

واليـوم لا بد من سـؤال مـن يقضون حيواتهم بالسـياحة والتنقُّلِ من المصايف إلى المشاتي ويتشدَّقون قائلين: "نحن أيضًا نسير على نهـج هؤلاء الصحابة الكرام"، ومن يفكّرون كيف سـيكون مسـتقبل أولادهـم وأحفادهم وينشـغلون بذلـك، ومن يتصرّفـون وفقَ المثل الـكاذب القائـل "إن مال الدولة بحرٌ من لا يشـرب منه فهو أحمق"؛ لا بـدَّ مـن سُـؤالهم: "من هو قدوتكـم، من هو مثلكـم الأعلى؟" ألا يلزمهـم كمؤمنيـن أن يسـتحيوا مـن الله تعالـى ويبتعـدوا تمامًـا عن مثـل هـذه الأفكار التي لا تجـول إلا بعقول أمثال قارون ورمسـيس وآموفيس؟ إنني أسأل الله العظيم أن يوفق من نذروا أنفسهم للخدمة

(٦٤) سنن ابن ماجه، المقدمة، ١٥؛ مسند الإمام أحمد، ١٦٨/٢.

الإيمانيـة المثالية السـامية إلى الحفاظ على مشـاعر الحياء والخجل هـذه؛ فـلا يميلوا إلـى الدنيا، وألَّا يُطـاحَ بهـم، وألَّا تذهب ريحهم، وأرجو من الله لهم أن يصبروا ويحتسبوا قائلين: "إننا نعضُّ على ديننا بالنواجـذِ ونصبرُ، وحسـبنا ألا ينقـصَ من أَجْرِنا في الآخرة شـيء"، وعليهم أن يرضوا بالابتلاءِ والظلْمِ متمثِّلين قولَ "ضياء باشا" ﵀:

الجاهل يعيش في ترفٍ ونزهةٍ ورخاءٍ

والعارف يسبح في دوّامة المحن والبلاء

ولكـن حَذَارِ أن يغبطوا الآخرين على حياتهم الفارهة المطنطنة، ويجـدر بهـم، بل وينبغي لهـم أن يعتبروا الأشـياء الدنيويـة قذارات علقـت بأطـراف أقدامهـم، وعليهم أن يسـيروا بحماسـة إلـى الدار الآخرة، فإذا ما سُئِلُوا وهم ينتقلون إلى الدار الآخرة: "ماذا تركتم في الدنيا؟" أجابوا: "لا نتذكَّرُ شـيئًا"، لأن الاسـتغناءَ والتفانيَ والتواضـعَ هو أساسُ عملِنا، وتصرف رجال الغاية المثالية -الذين نذروا أنفسهم لإعادة تشـييدِ صَرحِ الأخلاقِ المتهدِّمِ- تصرفًا خلاف ذلك سـيؤدّي إلى خسارتهم اعتبارهم ومكانتهم لدى الحقِّ تعالى، كما أنه سَيُزَعْزِعُ مشـاعرَ وثقةَ الناسِ بهم، وإن من ضلّوا عن الحقِّ إلى الباطلِ، وعن الطريقِ المسـتقيمِ إلى الطريقِ المعوجِّ، وما أكثر أمثلتهم في التاريخ! ليتدحرجون ويفنَون كقارون -حفظنا الله-، حتى وإن أظهروا أنفسَهم بمظْهَرِ سيدنا هارون ﵇.

أجـل، ينبغـي لأرباب التضحيـة والتفاني ألّا يتخلّـوا عن مبدئهم هـذا حتى ولو تمَّ إغراؤهم بأعلى الرتبِ وأرفـع النياشـين، ولو حتى كانـت الرتبـة من قبيـلِ فاتح إسـطنبول مثلًا، أو فاتـح فيينا بل فاتح

رومـا، ولا بـد أن نُغادِرَ الدنيا كما جئناها صفرًا لا نملِكُ من حطامِها شيئًا، وكما رأينا في الأمثلةِ المذكورةِ أعلاه، ولْيرَ هذه الأمثلة ويعتبر بهـا مـن يراها، وليغـضّ الطرفَ عنها مـن يغضه؛ فمـن رأى وعرفَ وغرفَ وقدَّرَ فإنّ ذلك سيكون شفيعًا له في الآخرة، وأما من استخفَّ ولم يُقدِّر ولم يهتمّ فإنّ المطارقَ ستنهالُ على رأسه يوم الحساب.

"إنهم لا يخافون لومة لائم!"

يقول نائلي قديم:

سقطت الوردة بين الأشواك فدمى قلب العندليب

ونظرَ إلى الشوكة تارةً وإلى الوردة تارة وبكى العندليب.

إن الأمر كما قيل في البيت أعلاه؛ فكثيرةٌ هي الورودُ التي سقطت بين الأشواك، وكثيرةٌ هي البلابل التي أنَّت وبكت حزنًا عليها، واليوم أيضًـا حان الأنينُ والبكاء لِأبطال الغاية المثالية؛ فما أكثر الافتراءات المزعومـة والانتقـادات والاسـتهزاءات والسـخريات والمؤامـرات والحيل ضدهم... عليهم في مواجهة كل هذه الابتلاءات أن يتحركوا وهـم يتمثلـون موقفًا وقـورًا ثابتًا وفقَ المنطق الذي عبَّرَ عنه الشـاعر التركي "نفعي" قائلًا:

ما تنعّمنا بالدنيا وما ابتغينا شيئًا من أهلها

وما لجأنا إلا إلى الحضرة الإلهيّة

وما أعذب قول الشاعر الحكيم "سعدي" حينما قال:

إن أصاب حجرُ المقلاعِ -خطأً- سلطانيّةً ذهبيّةً

فلا ترتفعُ قيمةُ الحجر، ولا تنقص قيمة السلطانيّة

openkandil.com

وعليه فليرموكم بالأحجار كما شاؤوا، ما دمتم كأسًا ذهبيًا؛ فَبِإذن الله تعالى وعنايته لن يستطيع أحدٌ أن ينالَ منكم ولا أن يؤذيَكم، ولا سيما أن الله تعالى قال في القرآن الكريم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٥٤)؛ فأرشدنا إلى التصرُّف والسلوك الذي يجب اتباعه في مثل هذه الحالات، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنه ينبغي اعتبارُ كلِّ ما يقعُ للإنسان من حوادثَ تتخطَّى الأسبابَ الظاهريّة امتحانًا وابتلاءً يؤدّي إلى التقرُّب من الحبيب ﷺ، ولا سيّما أن بطلَ هذا الأفق مهمومَ هذا العصرِ الأستاذَ النُّورسي قال: "وليكن كلُّ ما قاسَيتُهُ في غضونِ ثمانٍ وعشرين سنة من الأذى والمصائب حلالًا زلالًا، أما الذين ظلموني وجرجروني من مدينة إلى أخرى، والذين أرادوا أن يَصِمُوني بمختلف التُّهَمِ والإهانات، وأفردوا لي أماكن في الزنزانات فقد غفرتُ لهم ذلك وتنازلْتُ عن حقوقي تجاههم"[(٦٥)]، وعلى من يُدركون أنهم سالكو نفس الطريق أن يقولوا مثلما قال الشاعر "نسيمي":

أنا عاشقٌ لك ملوَّعٌ أيها الحبيب المحبوب
حتى وإن شققتَ قلبي بالخنجر فلن أتزحزحَ عن حبّك أو أؤوب
ولو وضع النجَّارُ منشارَه على رأسي مهدِّدًا
بل وإن شقّوني نصفين كزكريا مجدّدًا
وإن أحرقوا جسمي وذرُّوا رمادي
يا إلهي يا ستّارُ لن أتنازلَ عنك يا مرادي

(٦٥) بديع الزمان سعيد النورسي: **الملاحق**، لاحقة أميرداغ ٢، ص ٣٣٧-٣٣٨.

وعليهم أن يُكثِّفُوا كل همَّتهم ويُسَخِّروها في عملٍ ما يجب عمله دون أن يُلقُوا بالًا إلى الكلمات المبذولةِ، أو أن يشغلوا أذهانهم بها، وعليهم كذلك أن يسيروا ثابتين مرفوعي الرأس في السبيلِ الحقِّ الذي يعرفونه.

ولا يساورنَّكم شكٌّ في أن القلوب التي نذرت نفسها لخدمة الإيمان سوف تواصِلُ خدماتها في ظلِّ عناية الله ورعايته، ولن يُوقِفَ أو يُعَرقِلَ مسيرتها أحدٌ على الإطلاقِ طالما أنها استمرَّت في عملها وسيرها وقد أسلمت أمرها لله ودستورها في عملها:

لنَرَ المولى ماذا سيُقدِّر
فالأجملُ كلُّ ما هو يُقَدِّر...

obeikandl.com